

الفصل الأول

ملاح تاريخية للمنمنمة الإسلامية

تمهيد

تتعدد منابع الرؤية الفنية أمام الفنان التشكيلي كي يستلهم إبداعاته ، ويستقي أفكاره وموضوعاته ، وتتنوع المصادر التي ينهل منها الفنان صياغته التشكيلية وحلوله الجمالية ، فإلى جانب الطبيعة وما تزرخ به من مخلوقات وموضوعات وظواهر وتكوينات ونظم وعلاقات تثير الفنان وتشد ذهنه ووجدانه ، وإلى جانب الواقع الحياتي المعاش بكل مقوماته ومعطياته ومكوناته الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وبكل قضايا الحاضرة وآماله المستقبلية ، فإن هناك مصدراً هاماً وغنياً لإثارة الفنان وإمداده بالكثير مما يبحث عنه ويسعى إليه من حلول جمالية وصياغات تشكيلية ومدلولات تعبيرية وأبعاد إنسانية أيضاً .. ذلك هو التراث الفني الذي خلفه لنا الإنسان - منذ خلقته - على مدى حضاراته المتعاقبة مصرية وقبطية وإسلامية .

وتتبلور هذه الأهمية في أن التراث هو أحد مداخل إثراء الخبرة الفنية للفنان ، فعلى ضوء تحليل وتفسير الأعمال الفنية للتراث يتم التوصل إلى الملاحم والخصائص الفنية والجمالية والفكرية في مختلف المجالات الفنية ، ثم استفادة الفنان في تكوين حصيلة من الخبرة الفنية والجمالية التي يستعين بها الفنان في حل المشكلات الفنية الابتكارية .

ومما لا شك فيه أن رؤية فنية متكاملة فاحصة ونظرة واعية متجددة ومعاصرة من الفنان إلى ما تزرخ به متاحفنا للحضارات الفنية المتعاقبة كفيلة بأن تخرج مكتشفات إبداعية جديدة لم يرها العالم من قبل .

فالتراث الحضاري انتماء وتكامل بشري ، والفنان الذي لا يحس بهذا الانتماء ولا يسعى إليه هو فنان ضال ، إذا أن التراث هو جزء من

التواصل الإنساني الممتد في الزمن ، يستفيد اللاحق من السابق ويضيف إلى الخبرة الإنسانية جزءاً صغيراً من خبرته في الكون .

والتراث هو نقطة البداية كمسئولية ثقافية وقومية - في تطوير الواقع ، وهو العطاء القومي الحضاري المتزايد الذي يجهز به الإنسان في مجتمع من المجتمعات لخوض غمار المستقبل .

والفن الإسلامي بمختلف ضروبه وتعدد مجالاته هو أحد الفنون التراثية العريقة التي تتطوي على الكثير من القيم الفنية والتشكيلية والجمالية الأصيلة . التي كانت ولا تزال وستظل أبداً منهلاً خصباً للفنان التشكيلي المعاصر ليستلهم إبداعاته وينهل منها الكثير من الصياغات الفنية والحلول الجمالية لمشكلاته التشكيلية المعاصرة ، وبصفة خاصة في هذه الآونة التي يسعى فيها الفنان العربي بعامة والفنان المصري على وجه الخصوص إلى تأكيد شخصيته وهويته الفنية بعد سنوات طويلة من الاغتراب الفني نتيجة تبعيته للغرب وسيره في فلك الأساليب الغربية الغريبة والوافدة والبعيدة كل البعد عن واقعة وطبيعة تكوينه النفسي والوجداني و مقومات مجتمعه .

ويدور محور هذه الدراسة ، حول فن المنمنمات الإسلامية ، كأحد المجالات الفنية ، في التراث العربي الإسلامي حيث يتناول تعريفها ، وأسباب ظهورها وفلسفتها ، وأهدافها ، وأهم مدارسها ، والموضوعات الاجتماعية التي تناولها ، كذلك السمات التشكيلية ، والبناء الشكلي للمنمنمات الإسلامية كمدخل جمالي للإفادة من هذه السمات والدلالات الرمزية التي تتطوي عليها وذلك باعتبارها مصدراً تراثياً يمكن أن يثري الصياغات الشكلية ويضيف أبعاداً تعبيرية وجمالية إلى المشغولة الفنية المعاصرة مع

الاحتفاظ بالأصالة في التراث الفني الإنساني ، وقد جاء اهتمام الكاتب بهذا الموضوع نتيجة للدور الهام الذي تمثله المنمنمات الإسلامية كأحد وسائل الاتصال بالحضارة العربية عبر العصور الوسطى في جميع مناسط الحياة ، حيث أنها تعد مرآة صادقة حقيقية لهذا العصر ، كما أنها يمكن أن تكون مصدراً ثرياً للفن التشكيلي العربي اليوم وذلك في محاولة الفنان العربي المعاصر لتأكيد الهوية العربية المستقلة عن تقليد فنون الغرب .

وإذا كان الفن العربي اليوم ، وهو يسير في طريق التحرر من التأثيرات الدخيلة والعبثية في فنون الغرب - عليه أن يؤكد أصالته ، وأن يسعى إلى تحديد شخصيته المتميزة ، وأن يجعل من أسلوبه الخاص والتميز ، فناً معاصراً ، خاصة وهو صاحب التراث الإنساني الذي يمتد بجذوره إلى أعماق التاريخ ، فإن تحقيق هذه الغاية يتطلب الكثير من التعمق في الدراسة ، والكشف عن أصالة تلك الفنون وما تحمله من مثيرات جمالية يمكن أن تبلور شخصية الفنان العربي المعاصر كما أن الفنون التراثية تتبلور نتيجة الاحتكاك الثقافي المستمر ، وإدماجها في منظومة الحاضر لتتفاعل مع طبيعة ثقافة ، وفكر الإنسان ، مما لا يفقده الانفتاح على الثقافات المعاصرة في نفس الوقت .

وذلك جانب هام من ثقافة الشعوب الذي حفظ في العقائد والممارسات والعادات ، والتقاليد المرجعية الجارية في الأساطير، وقصص الخوارق ، والمقامات الشعبية التي لاقت قبولاً من العامة .

وقد رأى الكاتب أن السمات التشكيلية ، والقيم الفنية التي تتضمنها وتنطوي عليها المنمنمات الإسلامية ، يمكن أن تشكل محوراً هاماً من المحاور التي يمكن أن ينطلق منها تصميم وبناء المشغولة الفنية المعاصرة ،

بما تحويه من اتساقات بين الصياغات الشكلية ، وما تحمله من معان ودلالات رمزية .

ذلك أن فهم واستيعاب الرموز والوحدات الزخرفية للمنمنمات الإسلامية يدعم الابتكار عند التفكير في تصميم المشغولة الفنية المعاصرة بمعنى أن المصمم يقف عند تصديه للمشكلات الجمالية موقفين هامين ، أولهما إزاء التعامل مع البناء الشكلي ، والصيغ الجمالية ، أما الموقف الثاني فيتركز حول المعاني والدلالات التي يتضمنها الشكل ، وهما موقفان متلازمان و مترابطان .

ويهتم الكتاب بالكشف عن السمات التشكيلية للمنمنمات الإسلامية التي نسخها وصورها " يحيى بن محمود بن الحسن الواسطي " من خلال المقامات الأدبية التي ألفها (أبو القاسم الحريري) وينتمي الواسطي إلى المدرسة العربية البغدادية في التصوير مثل (المدرسة الإيرانية ، المدرسة الهندية ، المدرسة التركية العثمانية) وسوف يتصدى الكاتب بالدراسة لأسلوب مدرسة بغداد بالدراسة والتحليل في الإطار النظري للدراسة بهدف التوصل إلى رؤية جديدة للصياغات الشكلية والمعاني الرمزية والتصورات الفنية المرتبطة بأوجه الحياة العربية الإسلامية في عهدها الأول .

وتبلغ صور مخطوطة الواسطي تسعاً وتسعين منمنمة ملونة في مائة سبع وستين ورقة مقاس 37 سم × 28 سم تقريباً .

وقد تعددت العناصر التشكيلية في المنمنمات الإسلامية مما أعطى لها طابعاً مميزاً رمزياً له معانٍ ودلالات شديدة الخصوصية سجلتها ريشة الفنان العربي في المخطوطات العلمية والأدبية ، كما تعددت الرموز الزخرفية في الرسوم (الآدمية ، والحيوانية ، والنباتية ، والعمائر

الإسلامية كالمساجد ، والمنازل ، والقصور ، والأسواق) ، كما استطاع أن يستخدم الوحدات الهندسية بمهارة حيث حرص على إنشاء أساس بنائي تصويري خاص أثري تكوين المنمنمة ، كما استخدم اللون كقيمة فنية على أسس وقواعد نابعة من إحساسه القوي بالمحيط البيئي المتمثل في لون الصحراء ، وصفاء السماء ، وجريان الأنهار وخضرة النبات وهي البيئة التي جذبت المستشرقين إلى سحر الشرق .

ومما سبق يلاحظ الكاتب أن المنمنمات الإسلامية قد ارتبطت بالطبيعة والحياة اليومية ، وعبرت عن فلسفة وعقيدة تلك الحضارة ، وأيضاً تمت صياغتها بقدر من التلخيص والتجريد في البناء الشكلي ، وجاءت صورها محملة بالرمزية التي تعكس دلالات خاصة بفكر وهوية المجتمع العربي في ذلك الوقت .

ويرى الكاتب أن تتبع نشأة التصوير العربي في عهده الأول منذ العهد الأموي وحتى العصر العباسي المتأخر بتطوره الفني ، بما يحمله من ذهنية عربية فلسفية بدءاً من الرسوم الجدارية في القصور الأموية والعباسية وحتى المخطوطات ، وتذويق الكتب بالمنمنمات بزخارفها ورقشها ورموزها ، يمكن أن يساعد في التوصل إلى مداخل أو أسس يمكن الاستناد إليها في بناء وتصميم مشغولة فنية تتميز بالأصالة والمعاصرة في نفس الوقت .

ومن خلال مشاركة الكاتب في تدريس الأشغال الفنية لطلاب كلية التربية الفنية تطبيقاً لمناهج الفرق الدراسية المختلفة فقد لاحظ الكاتب أنه بالرغم من ثراء الأساليب المتبعة في تصميم وبناء المشغولة الفنية فإن هناك تركيز كبير من الدارسين على الاتجاهات الغربية ، كما لاحظ أيضاً قلة

التركيز على توظيف المعاني الرمزية وتأكيد ما أدى إلى افتقار البناء الشكلي إلى المعاني والدلالات الواضحة في كثير من الأحيان .

أما في الحالات التي يلجأ فيها الطلاب إلى الرجوع إلى التراث الفني الحضاري سواء في حقة المصرية القديمة أو عصوره الإسلامية ، فإن الطلاب يقفون في استلhamاتهم لهذا التراث عند حدود النسخ والنقل المباشر لبعض الوحدات الزخرفية في أنماط تكرارية ، سواء كانت هذه الوحدات الزخرفية عضوية أو هندسية ، مما يؤدي في النهاية إلى أعمال نمطية ممسوخة ومشوهة مهما بلغت دقة النقل والتسجيل ، الأمر الذي لا يحقق الاستفادة الحقيقية من القيم الجمالية والتشكيلية لهذا التراث العظيم .

وعلى هذا يمكن للكاتب أن يستشعر مشكلة هذه الدراسة حيث تتحدد في التساؤلات التالية :

- إلى أي مدى يمكن استخلاص الخصائص التشكيلية والقيم الفنية والتعبيرية للمنمنمات الإسلامية باعتبارها أحد المجالات الفنية الخصبة التي خلفها الفنان الإسلامي في تراثه الحضاري ؟
- كيف يمكن استلham تلك الخصائص التشكيلية والقيم الفنية والتعبيرية للمنمنمات الإسلامية والإفادة منها في إثراء القيمة الفنية للمشغولة الفنية المعاصرة ؟

وتأتي أهمية الكتاب في النقاط التالية :

- إن هذا الكتاب هو محاولة لإلقاء الضوء على أحد المجالات الفنية الهامة في التراث الإسلامي وهو فن المنمنمات الإسلامية من خلال أحد نماذجها الشهيرة وهي مقامات الحريري

للواسطى ، وذلك بالدراسة الفنية التحليلية لتأصيل هذا الفن الذي تندر فيه الأبحاث العلمية والمؤلفات الفنية .

- وتعد هذه الدراسة إحدى المحاولات القليلة التي تحاول التوصل إلى استخلاص السمات التشكيلية والخصائص الفنية والقيم الجمالية للمنمنمات الإسلامية وذلك وفق منهج بحثى علمي وأسلوب تحليلي موضوعي يبتعد كثيراً عن كل أنماط النقد والتحليل الانطباعي المبني على الذاتية والحماس غير الواعي بأسس وركائز وفلسفة هذا الفن .

- إن هذه الدراسة تعد مدخلاً هاماً في الاستفادة من التراث الحضاري في استلهم الحلول الجمالية والصياغات التشكيلية و توظيفها برؤية مستحدثة في أعمال فنية معاصرة . وفي مجال الأشغال الفنية بوجه خاص سواء في البناء الشكلي للمشغولة أو المحتوى التعبيري والدلالي لما تطوي عليه من مضامين .

- إن هذه الدراسة تعد خطوة هامة في مسيرة التجريب في ميدان الفن التشكيلي بوجه عام ، ومجال الأشغال الفنية بوجه خاص وذلك في إطار السعي إلى تحديث المشغولة الفنية وتقديم رؤية معاصرة لها ، وأبعاد تشكيلية وتعبيرية جديدة عليها . وذلك بما يؤدي إلى تحقيق الأصالة والمعاصرة معاً .

وتهدف هذه الدراسة إلى :

- الكشف عن السمات التشكيلية والقيم الفنية والجمالية في المنمنمات الإسلامية ، والاستفادة منها في تصميم البناء

الشكلي للمشغولة الفنية المعاصرة والمتوافق مع المعاني والدلالات الرمزية التي تتضمنها .

- إحياء التراث العربي الإسلامي من خلال دراسة المنمنمات الإسلامية بما يتفق مع المفاهيم الفلسفية المعاصرة ، مع عدم إهدار القيم التشكيلية والجمالية لهذا التراث .
- تنمية القدرات الإبداعية عن طريق التجريب بمختلف الخامات الطبيعية – والخامات المعالجة تكنولوجياً وكذلك باستخدام مختلف التقنيات وأساليب الأداء ، مما يتيح صياغات تشكيلية مستحدثة ، وأبعاد جمالية تثري العمل الفني .
- عمل مشغولات فنية معاصرة في صياغات تشكيلية مستحدثة تعتمد على التحديث في متغيرات التشكيل (شكلاً ومضموناً) من تصميم ووظيفة وخامة وتقنية ، وتستند إلى استلهام السمات الشكلية والقيم الجمالية للمنمنمات الإسلامية .

وتقتصر الدراسة على دراسة مختارات محددة من المنمنمات الإسلامية ، باعتبارها أشهر نماذجها وهي مقامات الحريري التي صورها الواسطي في تسع وتسعين لوحة ثم اختيار عشرة منها فقط بمعرفة الكاتب وذلك كعينة للدراسة النظرية والتنفيذ العملي .

وتتعرض هذه الدراسة لجانبين:

أولاً : الإطار النظري ويشمل :

1. عرض لفلسفة الفن الإسلامي وركائزه الروحية المستمدة من العقيدة الإسلامية ، وأهم المفاهيم الفلسفية والجمالية في الفكر الإسلامي وانعكاس هذه المفاهيم على تحديد الخصائص الفنية

والتشكيلية والقيم الجمالية التي يتميز بها الفن الإسلامي وينفرد بها عن فنون العالم .

2. عرض موجز لفن التصوير الإسلامي ومدارسه المختلفة وأهم الخصائص الفنية والسمات التعبيرية لكل مدرسة وأسلوبها الفني ، مع الإشارة بشيء من التفصيل عن فنون الكتاب والرسوم التوضيحية المصاحبة للنصوص العلمية والأدبية للكتب والمخطوطات .

3. نبذة تاريخية عن الفكر الفلسفي والعقائدي الذي يقف وراء فن المنمنمات الإسلامية في وجهتي النظر (الانثروبولوجي – والسوسيولوجي) بهدف إدراك الدلالات الرمزية والتعبيرية للمشغولة الفنية المعاصرة .

4. دراسة تحليلية لمختارات من المنمنمات الإسلامية (فن الواسطي) مصور مقامات الحريري مع نبذة عن فن المقامات كأحد أشكال الأدب العربي ومن أشهر نماذجها مقامات الحريري من حيث :

- دراسة المحتوى الشكلي (العناصر الشكلية) والعلاقة بين هذه العناصر .
- دراسة المحتوى التمثيلي الرمزي (المضمون) والعلاقة بين الأشياء الممثلة رمزياً .
- دراسة العلاقة بين المحتويين (الشكل والمضمون) وذلك بهدف الكشف عن :

- الخصائص الفنية والقيم الجمالية التي تتطوي عليها المنمنمات الإسلامية .
- السمات الرمزية والتعبيرية للمنمنمات الإسلامية .
- الاستفادة من تلك السمات لإثراء المتغيرات التشكيلية للمشغولة الفنية المعاصرة .

■ عرض وشرح لاتجاهات التحديث في المشغولة الفنية المعاصرة من حيث متغيرات التشكيل التي تحكم هذه الاتجاهات سواء بالنسبة لشكل المشغولة وتصميمها أو خامات وتقنيات وأساليب التنفيذ أو المضامين التعبيرية التي تقوم عليها. وصولاً إلى دور هذه الدراسة وموقفه من هذه الاتجاهات وما ينطوي عليه من جديد لتقديم مشغولة فنية معاصرة تستند في نفس الوقت على مجموعة من السمات والخصائص الفنية والجمالية المستلهمة من التراث الإسلامي .

ثانياً : الجانب التطبيقي :

في ضوء المفاهيم السابقة التي عرضها في الإطار النظري ، وما توصل إليه الكاتب من الدلالات الرمزية والتعبيرية ، والمتغيرات الشكلية للمنمنمات الإسلامية ، واستناداً لما تم استخلاصه من خصائص فنية وسمات تشكيلية وقيم جمالية لهذه المنمنمات ، يقوم الكاتب بالآتي :

1- طرح مدخل تجربى لعمل صياغات مستحدثة للمشغولات الفنية بما يثري قيمتها الجمالية والوظيفية .

2- التجريب من قبل الكاتب لابتكار مشغولات فنية معاصرة في ضوء المدخل التجريبي المقترح ، معتمداً في صياغتها على محورين أساسيين هما :

المحور الأول :

يرتبط بالبناء التصميمي للمشغولة الفنية حيث يقوم التصميم على :

- استلهام اللوحة الأصلية (المنمنمة) برؤية معاصرة مع الحفاظ على الروح العام للعمل التراثي وأصالته وذلك بعيداً عن الالتزام بالنقل الحرفي ومحاكاة الأصل .

- تصميم المشغولة في صياغة تشكيلية مبتكرة تقوم على الحلول الجمالية المستلهمة من السمات الفنية المستخلصة من المنمنمات الإسلامية والتي استخلصها الكاتب من خلال الدراسة والتحليل في الإطار النظري ولكن بما لا يؤدي إلى تشويه العمل الأصلي والابتعاد عن فكره وروحه .
- استثمار الكاتب لنظم العلاقة الشكلية في التصميم (الحذف والإضافة ، الاختزال والتبسيط ، التحوير والتجريد ، التصغير والتكبير ، التكرار ، التداخل والتشابك ، والتضافر ، والتوالد) .
- الالتزام بالمضمون التعبيري والمحتوى الدلالي للنص الأدبي الذي يطرحه العمل الأصلي باعتباره رسماً توضيحياً للنص الوارد بالمقامة .

المحور الثاني :

- يرتبط بالممارسات التطبيقية التجريبية التي يقوم بها الكاتب في تجربة الدراسة والتي تعتمد على أساليب التشكيل اليدوي الخاصة بمجال الأشغال الفنية في ضوء :
- التوليف والجمع بين أكثر من نوع وشكل للخامات والمكملات المستخدمة .
 - استخدام أكثر من تقنية وأسلوب أدائي في تنفيذ المشغولة الفنية على أن يراعي مدى ملائمة التشكيل للخامة المنفذ بها والخامة المؤلفة معها ، ومدى ملائمتها لتحقيق الجانب الوظيفي .
 - توصيف الأعمال الفنية وتحليلها تحليل فنياً جمالياً بمعرفة الكاتب .
 - عرض نتائج الممارسات التطبيقية على الأساتذة المتخصصين لتقييمها .
 - تحليل النتائج ومناقشتها في ضوء فروض وأهداف الدراسة .

المصطلحات :

• المنمنمة : Miniature

تعنى كلمة المنمنمة في المعجم الوجيز الشيء المزخرف والمزركش ونمنم الشيء أي زركشه وزخرفه ، والمنمنمة كلمة مشتقة من الفعل نم نم أي نمنم الشيء زخرفه ونقشه وزينه ، وتعنى الخطوط المتقاربة والقصيرة ، والمنمنمة هي التصوير الدقيق التي تزين صفحة أو صفحتي كتاب أو مخطوط ومظاهرها الدقة في التصوير وتنميق المخطوط بالرسوم والألوان ، ويقصد بهذا المصطلح في هذا الكتاب الصور التوضيحية في الكتب والمخطوطات الإسلامية ، وتتميز هذه الصور بكثرة تفاصيلها ودقتها وكثرة العناصر التشكيلية الآدمية والحيوانية والنباتية والطيور وغيرها من الوحدات الزخرفية العضوية والهندسية التي عالجها الفنان في تشكيلات وصيغ فنية تمتاز بالدقة المتناهية والتفاصيل الكثيرة والمساحات الدقيقة والألوان المتعددة .

ويقوم فن المنمنمات الإسلامية على أساس البنية التصغيرية في نسبة العناصر المرسومة ، حيث تتناسب مع مساحة صفحة الكتاب ولهذه الصورة بعدين فقط هما الطول والعرض مع غياب البعد الثالث الحقيقي وهو العمق أو الخلفية وفق قواعد المنظور .

• مقامات الحريري : Assembly Hariri

ظهرت المقامة أول ما ظهرت في شكل الندوة التي يلتقي فيها الناس ويتصدرها الأديب محدثاً بالعبارات الموجزة البليغة الصياغة معقبات على حادث أو عارضاً لحادثة ، وهذا هو الأصل الذي اشتق منه اسمها .

• السمات التشكيلية : Plastic Features

السمة هي الصفة وجمعها سمات بمعنى صفات وملاحم مميزة .
ويستخدمها علماء النفس بمعنى مجموعة الصفات المميزة للشخصية الإنسانية
وتستخدم في كثير من المجالات بمعنى خصائص الشيء وصفاته ، وفي مجال
الفنون التشكيلية يستخدم هذا المصطلح .

إجرائياً بمعنى الملاحم والخصائص التشكيلية للعمل الفني ، من
حيث التصميم والتكوين وما يميزه من علاقات فنية بين عناصر التشكيل
من خطوط وألوان وملامس ومساحات ، وما ينطوي عليه هذا العمل من قيم
جمالية كالوحدة والاتزان والإيقاع والتناسب... الخ

• المشغولة الفنية المعاصرة : Contemporary Handiwork

جاء في المعجم الوجيز (عاصر) فلان فلاناً ، أي عاش معه في
عصر واحد ، ومنها المعاصرة بمعنى المعاشة والملازمة في فترة زمنية
واحدة . أما المعنى الاصطلاحي لكلمة (معاصرة) هي أن يحمل الشيء
روح العصر الذي يعيش فيه ويتواءم مع مقوماته ومتطلباته ، ويجعل
معطياته العصرية الفكرية منها والعلمية والتقنية والاجتماعية . وهذا الأمر
بالنسبة للعمل الفني المعاصر وفي هذه الدراسة يقصد بالمشغولة الفنية
المعاصرة هي تلك المشغولة الفنية اليدوية المنتجة في هذا العصر الذي
نعيشه والمنفذة وفق رؤية معاصرة شكلاً ومضموناً ، سواء من حيث
متغيرات التشكيل (الوظيفة ، والتصميم ، والخامات ، والتقنيات) أو من
حيث الأبعاد التعبيرية والمضامين المعنوية التي تنطوي عليها .